التسامح وتقبل الآخر في بيئات التعلُّم الرقمية

أ.د. خالد مالك *

الطلاب في عصرنا الحالي لديهم حاجة ماسَّة إلى الالتزام بقيمة التسامح وقبول الآخر بين بعضهم البعض أكثر بكثير من أي وقت مضى؛ وذلك لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يومًا بعد يوم بفعل ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات التي أزالت الحواجز المكانية والزمنية بين الدول، حتى أصبح الجميع فى العالم كأنهم يعيشون في قرية صغيرة، ويظهر ذلك بوضوح في بيئات التعلُّم الرقمي المنتشرة عبر الإنترنت بشكلٍ عام، حيث يستطيع أي فرد مهما اختلفت ثقافته ومعتقداته وأفكاره أن يلتحق بها مهما بعدت المسافات، فهذه هي البيئات التي تخطط لها المؤسسات التعليمية وتسعى جاهدةً فيها لنشر قيَم التسامح وتقبُّل الآخر، من خلال ممارساتها في هذه البيئات الرقمية للتعلُّم.

ومن بيئات التعلم الرقمية التي بدأت تنتشر بشكلٍ كبيرٍ جدًا على شبكة الإنترنت، ما يُسمَّى بالمقررات المفتوحة واسعة الانتشار Moocs "موكس" Massive Open Online Courses التي تبثها المؤسسات التعليمية إلكترونيًا من بُعد عبر الإنترنت؛ لتقدم عن طريقها موضوعات علمية متعددة في مختلف التخصصات ويلتحق بها من يريد من جميع بقا ع الأرض، بشرط أن يتوافر لديه المتطلبات السابقة لتعلم هذا الموضوع، ومن هنا تبدأ مشكلة اختلاف الثقافات وتقدير القيم بشكل عام؛ وعلى وجه الخصوص قيم قبول الآخر والتسامح عند الانخراط فى التعلم عبر هذه المقررات، التي تتطلب مراعاة ذلك عند تقديم هذه المقررات وتصميم الأنشطة التعليمية التي تتطلب تفاعل الطلاب بعضهم مع البعض، دون حدوث صدام بسبب الاختلاف نتيجة البعد فى المكان بينهم، أو، نتيجة التباين فى الأعمار، أو، الجنس، أو، الثقافة والدين... إلخ.

* أستاذ تكنولوچيا التعليم بكلية التربية – جامعة حلوان – مصر.

يركز هذا المقال على ما يجب أن تتخذه المؤسسات التعليمية من تدابير وإجراءات عند تقديم مقررات إلكترونية مفتوحة واسعة الانتشار؛ لتجنب مشكلات عدم تقبُّل الآخر وعدم التسامح، وبث القيم الإيجابية فتكون تربية من أجل التسامح.

فالطلاب الذين يلتحقون في المقررات المفتوحة واسعة الانتشار تُتاح لهم فرصة كبيرة لتنمية ثقافة التسامح واحترام الاختلاف وقبول الآخر بينهم وبين أقرانهم، وذلك في عدة مَوَاطِن عند دراستهم لهذه المقررات. فأبرز مَواطن ظهور عدم التسامح وتقبل الآخر فى تقديم المقررات المفتوحة واسعة الانتشار ما يلي:

- المناقشة والحوار بشقيها: الصوتي والكتابي وبأسلوبيها المتزامن وغير المتزامن، سواء أكانت بين المعلم وطلابه أم كانت بين الطلاب وبعضهم البعض. فالمناقشة والحوار يتم التخطيط لها لتكون مُكوِّنًا أساسيًا من مكونات المقرر التعليمي لتحقيق نواتج التعلم المستهدفة، وتظهر بعدة صور مثل المنتديات التي تصاحب المقررات، أو، في صورة مناقشات متعاقبة بعد عرض المواد التعليمية لكل موضوع ومحاضرة المعلم. وهنا يجب التخطيط لإظهار مفهوم قيمة التسامح وتدريب الطلاب على اكتسابها، بحيث يعتاد الطلاب أثناء المناقشات التي تتم فى إطار دراساتهم أن يكون لديهم سَعَة صدر واستعداد لفهم وتفهُّم الآخرين.
- الأنشطة التعليمية التي تصاحب كل مقرر، فقد تكون فردية وقد تكون جماعية وفي هذه الحالة هل يتم اختيار الطلاب لبعضهم البعض أو يتم تقسيم الطلاب عشوائيًا، وهنا قد يأتي فى كل مجموعة طلاب متباينون في الفكر أو في الثقافة أو اللون... إلخ. وهنا تأتي أهمية بث القيمة الإيجابية لقبول الآخر والتسامح، وذلك من خلال التركيز في تصميم الأنشطة على تعلُّم التفكير الشامل وخلق جو تعليمي إيجابي، مع إعداد ميثاق أخلاقي يلتزم به أفراد كل مجموعة في العمل بين بعضهم البعض لتنفيذ النشاط الجماعي، ويكون ذلك تحت إشراف وتوجيه من المعلم.
- تقييم الأقران Peer Assessment: من أبرز المَواطِن في المقررات المفتوحة واسعة الانتشار "MOOCS" التي يظهر فيها كمطلَبٍ رئيسٍ بث قيمة التسامح وتقبُّل الآخر، وذلك عند تكليف الطلاب بتقييم أنشطة أقرانهم، ويتم ذلك من خلال تفعيل دور المعلم في توجيه الطلاب قبل توزيع مهام التقييم، حيث يقوم كل معلم بتوفير وصف وشرح لعملية وإجراءات تقييم الأقران، والتنبيه على الطلاب بألَّا تشغلهم شخصية من يقيِّم عملهم ويتم التركيز على العمل المقدم،

وأيضًا ألا يترك التقييم حسب الخبرة الشخصية والأهواء وإنما من خلال الالتزام بمعايير محددة يلتزم بها القرين لضمان عدالة التقييم. ومن المهم على المعلم تعزيز حالات تقييم الأقران الجيدة التي يظهر فيها قبول الآخرين والتغاضي عن الاختلافات بين القرين وقرينه.

وختامًا وبداية يأتي المعلم وأسلوبه في تقديم المادة العلمية ومراعاته للاختلافات المتنوعة بين الطلاب، وذلك بتركيزه على أوجه التشابه بين هؤلاء الطلاب وتعمُّده محاربة العنصرية ودمج التعليم الذي يقدمه بين الثقافات عند ضرب الأمثلة، والحديث عن الواقع الذي قد يتطلب تناول فئة من البشر بالشرح والتحليل، وهنا عليه أن يتناول الموضوع بحيادية دون التحيُّز اللافت للنظر، والسعي جاهدًا في نقل المعرفة الخاصة بأساليب التعامل السمح وقبول الآخر، وذلك حتى يعتاد الطلاب من المعلم الموضوعية فى الحديث.

وبهذا تكون بيئات التعلُّم الرقمي بشكلٍ عام والمقررات الإلكترونية المفتوحة واسعة الانتشار "MOOCS" على وجه الخصوص، بمثابة أرض خصبة يجب أن تتجه إليها المؤسسات التعليمية في البلدان المختلفة؛ لتكون مختبرًا لممارسة وإقرار قيم التسامح وقبول الآخر؛ نظرًا لما تتمتع به من ميزة عظيمة وهي التحاق طلاب بها من مختلف أرجاء المعمورة، لا يجمعهم إلا رغبتهم في فهم وتعلُّم موضوع علمي محدد.

المراجع:

- سلوى حشمت حسن عبد الوهاب (٢٠١٩). معايير أنماط وأدوات تقييم المتعلمين في المقررات المفتوحة واسعة النطاق على الإنترنت، المجلة العربية للتربية النوعية، ع٨، أبريل.
- محمد محسوب جليلة (٢٠١٦). تقويم المقررات واسعة الالتحاق بالجامعات السعودية في ضوء معايير الجودة، تكنولوچيا التعليم : سلسلة دراسات وبحوث، ع٢، مج٢٦.
- محمد محمد سليم أحمد (٢٠٢٠). دور جماعات النشاط في تنمية قيم التسامح لدى أعضائها، مجلة دراسات في الخدمة الاجتماعية والعلوم الإنسانية، ع٥٠، مج٣، أبريل.
- Hasebrook ,J., P., Richter,O., Z.(2005). Learning Tolerance: Online Learning and Online Portal for Intercultural Communication, IADIS International Conference on WWW/Internet.
- Unesco. Tolerance: the threshold of peace A teaching / learning guide for education for peace, human rights and democracy (Preliminary version),france.

ثقافة التسامح وقبول الآخر كأساس للتعايش السلمي

د. هانم أحمد حسن شحاته أبوالنيل *

مقدمة:

يكاد لا يخلو العالم من المشكلات والصراعات سواء أكانت صراعات فكرية أم مذهبية أم عقائدية أو حتى استعمارية، والتي تئول في النهاية: إلى صراعاتٍ مسلحةٍ لتحقيق أطماع معينة تكسر دولًا وتقسم أخرى وتُضعف ثالثة؛ لذا لا بُدَّ من مجابهة تلك الصراعات لا بصراعات مضادة ولكن بوسائل وأدوات الرقي الإنساني، ونشر وتأصيل القيم السامية للحضارات الإنسانية من أسباب التفاهم والتسامح وقبول الآخر والالتزام بقواعد ومبادئ العدالة الإنسانية.

كما تشير التعددية الثقافية إلى عقليات البشر المختلفة وعاداتهم ومعتقداتهم وسلوكهم؛ فبعض المجتمعات يتألف من نسيجٍ ثقافيٍّ واحد وبعضها من نسيجٍ ثقافيٍّ متعدد، سواء أكانت الفوارق الثقافية بين الجماعات التي يتكون منها المجتمع ثانوية أم أساسية، وبعض المجتمعات أسهمت ظروفها التاريخية في الحفاظ على هيمنة نسيج ثقافي أحادي، وبعضها قضت ظروف نشأتها التاريخية بأن تكون متعددة ثقافيًا تكونت من جماعات ثقافية مختلفة كالولايات المتحدة الأميركية مثلًا، وبين هذين النموذجين مجتمعات تتفاوت مستويات تعدُّدها الثقافي، فالتعددية الثقافية هي التقدير والتفاهم والقبول والاحترام المتبادل للثقافات المختلفة والمشاركة للعمل معًا لبناء مجتمعات موحدة، فهي النظام الأكثر عدلًا بحيث يُسمح للناس التعبير بحرية عن حقيقة من هم داخل المجتمع، وهي نظام أكثر تسامحًا يتكيف بشكل أفضل مع القضايا الاجتماعية.

وعليه، فإن فضيلة التسامح ضرورية إلى أقصى الحدود خصوصًا في حضارتنا المعاصرة– لا سيَّما في أوروبا – التي تشهد بروز مجتمعات متعددة الثقافات، وبها تنوع في الفوارق الدينية والمذهبية، فإن استطاع الناس ذوو القناعات الدينية والأيديولوچية والسياسية المختلفة أن يعيشوا

* مدرس التربية المقارنة والإدارة التعليمية – كلية التربية – جامعة مصر.

معًا في مجتمع ديمقراطي تعدُّدي، هنا يكتسب التسامح أهمية خاصة، ويصبح له الدور الأعم والفعال في ازدهار الحضارة، وبما أن الحاجة تدعو اليوم وبشدة إلى بعث الحياة في القيَم الإنسانية السامية ونشرها، فقد يكون من الأهمية والضرورة التدقيق في مفهوم التسامح، وتبيان أهميته من خلال اتصاله بالحياة الاجتماعية.

وعلى صعيدٍ آخر، ضربت الحضارة الإسلامية التي انطلقت من تعاليم الإسلام أروع الأمثلة في التسامح والتعايش الإيجابي بين الأمم والشعوب من مختلف الحضارات والثقافات والأديان والأجناس، حيث احتوت اختلاف الثقافات، وعملت على منع الآخرين من أن يكونوا آخرين؛ لذا فقبول اختلاف الآخرين سواء في الدين أم العرق أم السياسة – هو التسامح الحقيقي الذي ازدهرت به الحضارة الإسلامية، ولا تزال هذه التعاليم الإسلامية حيَّة وقادرة على صقل عقل الأمة وتوجيه سلوكها وتعاملها مع كل البشر في كل زمان ومكان.

ومما لا شك فيه أن الدين الإسلامي عامةً، والأديان خاصةً، وكل ثقافات العالم منذ القِدَم إلى وقتنا المعاصر تدعو إلى التسامح، إلا أنه يظهر بين الحين والآخر أفكار ومعتقدات تدعو إلى العدوانية والتعصب، تلك الأفكار ليست مقصورة على مجتمع بعينه، أو ثقافة بعينها بل هي ظاهرة عامة في كل المجتمعات؛ لذلك يجب أن يكون هناك إصرار من المسئولين، ورجال الدين على بث الوعي بين الإنسانية في اكتشاف رؤية عصرية لمفهوم التسامح، من داخل قيم كل مجتمع، ومن طبيعته التشريعية، والقانونية التي تمثلها قيم الأديان ونظامها الأساسي، وذلك بطرح العلاقة بين التسامح وكُلٍّ من الدين والأيديولوچيا والفلسفة.

فالتسامح اليوم ليس فضيلةً فحسب، بل هو ضرورة اجتماعية وثقافية وسياسية؛ لذلك ومن أجل تحصين واقعنا أمام كل المخاطر الزاحفة إلينا، والتي تستهدفنا في وجودنا ومكاسبنا وتطلعاتنا يجب تعميم وغرس هذه القيمة في فضائنا الاجتماعي، فنحن بحاجةٍ إلى سياجٍ قانونيّ وإجرائيّ يحمي هذه القيمة ويوفر لها الإمكانية الحقيقية؛ لكي تُستنبت في تربتنا الاجتماعية، وهذا يتطلب منا ضرورة تجريم كل أشكال بث الكراهية والحقد بين أبناء الوطن والمجتمع الواحد، فاللحظة التاريخية تتطلب منا جميعًا القبض على وحدتنا واستقرارنا، وهذا بطبيعة الحال يتطلب الوقوف بحزمٍ ضد كل محاولات بث الفُرْقة والكراهية والحقد بين أبناء الوطن الواحد.

وبذلك يعدُّ قبول الآخر المختلف شرطًا من شروط التواصُل والتكامُل بين بني البشر، إذا انعدم الحيف والإقصاء وسادت ثقافة التسامح والحوار بدل التصادم والتمييز بسبب الجنس أو

الدين أو القومية. وطالما أن الاختلاف لا يكون على حساب وجود الآخر أو على حساب هضم حقوقه، فإن المُواطنَة تنبني على هذا المبدأ من الاحترام المتبادل وقبول التعددية الفكرية.

واليوم نحن بحاجة لنشر ثقافة الحوار والتعددية والتسامح الديني في أبعاده الوجودية كضرورة حضارية اقتضتها السُّنَن الإلهية في نظر الإسلام، وقد صرح القرآن بذلك من خلال الآية: الكريمة "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (سورة الحجرات، الآية: ١٣)، لقد أكدت الآية: أقوال الفلاسفة والحكماء وما أثبته التاريخ والواقع من أن الإنسان مدني بطبعه؛ أي أنه لا يستطيع استكمال قدراته وتحقيق مختلف توازناته إلا داخل وسط اجتماعي متشابك، يحضر فيه التجانس والتنافر والتحابُب والتباغض والخير والشر والأنا والآخر.

كما تشير القرائن والأدلة القرآنية والتاريخية إلى أهمية منهج التعايش السلمي في الإسلام، وسَعَته في تقبُّل الاختلاف والتنوع واحترام الآخر وصيانة حقوقه دون عدوان أو صراع، وإظهار رفض الإسلام لكل أشكال العنصرية بسبب اللون أو الجنس أو العرق أو غيرها من المميزات غير الاختيارية، كما تؤكد التجاوب مع ثقافات الشعوب، والعيش المشترك، وهي مُنطلَقات مُستمدَّة من قواعد كبرى واضحة في تعاليم الإسلام وعقيدته قرآنًا وسنةً وأثرًا؛ كون السلام في الإسلام هو أصل العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول.

وبناءً على ما سبق تأتي أهمية الموضوع من ضرورة نشر ثقافة التسامح والقبول والتراحم، والرد على سلسلة المغالطات التي تروِّج لها جهات أجنبية، أو مؤسسات معادية، أو مصادر داخلية وظفت نصوصًا دينية توظيفًا سياسيًا أو قوميًا لمآرب خاصة، وتفنيد المغالطات المقصودة أو غير المقصودة التي كانت حافزًا لحالة توتير داخلي في بعض المجتمعات الإسلامية والعربية، وتصحيح المفاهيم والممارسات التي حَرَفت مجتمعاتنا عن سبيل الاتفاق.

أولًا: ثقافة التسامح:

تكمن قيم التسامح في احترام الوجود الإنساني بتنوعه، وهي أرضية أساسية لبناء المجتمع المدني وإرساء قواعد العيش المشترك، كما إنها قيمة أخلاقية وإنسانية تستوجب الاحترام المتبادل والتقدير المشترك والتعامل في نطاق الدائرة الموضوعية دون المساس بدائرة الخصوصية، وإثارة حساسيتها حتى نعدم انتهاك الحرمات الذاتية المفضية إلى التطاحُن والتعصُّب والتصادُم بدل

تبادل المعارف والمنافع والمصالح، والشراكة الفاعلة التي تنفع الجميع. وقد اشتمل القرآن الكريم على أكثر من مائة آية: موزعة في ستٍّ وثلاثين سورة تدعو إلى احترام الأديان الأخرى وأتباعها واحترام خصوصيتها.

وظهر من السياقات التاريخية أن القرآن شنَّع بالمشركين حين رفضوا أن يعيش دين جديد بجوار دينهم وقرروا مَحْقَه واستئصاله من الوجود، كما نهى الإسلام عن سب المشركين وسب عقائدهم ودعاهم إلى حُسن التعامل مع المخالف، ومن هذه المنطلقات وغيرها فإن مختلف الدعاوى المعاصرة إلى الإقصاء والتعصب والتصادم والحروب المقدسة، دعاوى لا يستسيغها التعامل الراهن لأن الرسالات السماوية تدعو جميعها إلى التسامح، وإن ما ظهر من فترات حالكة في التاريخ تقابله لحظات مشرقة وتجارب إنسانية رائدة في التسامح والتقارب.

مفهوم التسامح

لغةً: جاء في (اللسان: سَمَحَ): السماح والسماحة – الجُود، ورجلٌ سَمْحٌ وامرأةٌ سَمْحةٌ وسَمَحَ وأسْمَحَ إذا جاد وأعطى عن كرمٍ وسخاء، وسمح لي فلان أي أعطاني، وسمح لي بذلك: وافقني على المطلوب، والمُسامَحة: المُساهَلة، وتسامحوا: تساهلوا.

فنجد في اللغة العربية: يظهر من خلال لفظ كلمة: "تسامُح"، وفي اللغات الغربية وغيرها الإنجليزية والفرنسية أن هذا التعبير: Tolerance, Toleratio يُراد به – بحسب – تعريف القواميس الإنكليزية والفرنسية لهذه الكلمة أنها السماح لشيء ما أن يُفعل مع أنك لا تحب هذا الشيء، فتُستعمل هذه الكلمة مثلًا في سماح الدولة بالتدخين أو شرب الخمور مع أنها تدرك أذى ذلك.

اصطلاحًا: فالتسامح tolerance: يعني الاستعداد لاتخاذ الموقف المتسامح؛ ولذلك فالتسامح حين يوجد هو بمعناه العام موقف الناس الذين هم في المراكز القوية، بمن فيهم السياسيون نحو الناس الذين هم في مواقع أقل قوة؛ ولكنه يمكن أن يكون كذلك موقف الأكثرية السائدة من الأقلية.

والتسامح هو مُكوِّن معرفي وجداني سلوكي نحو الذات والآخر والمواقف، متمثلًا في مجموعة من المعارف والمعتقدات والمبادئ والمشاعر والسلوكيات التي تدفع صاحبها للتصالح مع ذاته ومع الآخر، وتجعله متصفًا بالتسامح في مواقف الحياة المختلفة.

وهو موقف من الآخر سواء أكان إنسانًا أم فكرًا أم رأيًا، إنه الموقف الذي ينمُّ عن سَعَة صدر واستعداد لفهم وتفهُّم الآخرين.

كما يُعرَّف على أنه موقف فكري وعملي قوامُه تقبُّل المواقف الفكرية والعملية التي تصدر عن الآخر سواء أكانت موافقة أم مخالفة لمواقفنا.

ويُعرَّف بأنه السعي إلى المساواة بين جميع الأفراد في المعاملة حتى مع من يختلفون معنا في الرأي والمعتقد والأفكار وغيرها، ومحاولة فهم هؤلاء المختلفين معنا والتعاطف معهم.

ويعني التحكم في النفس عمدًا في مواجهة الشيء الذي يكرهه الفرد وفي مواجهة التهديدات وموضوعات الخلاف، كما أنه هو حرية المعتقد والتعبير والإقرار والاختلاف والتنوع مع ضرورة التعايش والتعاون.

كما يعرف التسامح بأنه الاحترام والقبول والتقدير لمختلف الثقافات في العالم ولأشكال التعبير المختلفة الخاصة بكل منها، فالتسامح يعني التجانس مع الاختلاف وهو يزداد مع المعرفة وانفتاح العقل والانفتاح على العالم وزيادة الاتصالات والتفاعلات مع الثقافات الأخرى، إلى جانب حرية التفكير والمعتقدات والممارسات.

ويشير إلى قدرة الفرد على قبول الاختلاف واحترام الآخر، وعدم التمييز أو النبذ بسبب اللون أو النوع أو المعتقد أو الموقف الفكري أو المستوى الاقتصادي، والمعاملة الحسنة وعدم اللجوء إلى العنف تجاه الآخرين.

دوافع نشر قيم التسامح، تتمثل في الآتي:

- **التعدُّدية والتنوع:** تميز المجتمع بالتعددية والتنوع وفق النوع الاجتماعي والعُرْف والثقافة الاجتماعية والدين واللون والطبقة الاجتماعية.
- **الاختلاف:** من معاني التسامح قبول الآخر والتعايش مع الآخر واحترام الرأي الآخر والإقرار باختلاف حق وقبول التنوع.
- **التعارف:** بأن للمجتمع أفرادًا من شتى الأصول والميادين والجنسيات والطبقات الاجتماعية وأن الاختلاف والتنوع واقع للتسامح.
- **التعايش:** يعد التعايش أحد جوانب التسامح فلا يمكن التعايش في غياب التسامح.
- **المساواة:** تتعلق المساواة باندماج الأفراد في مجتمعهم على جميع المستويات.

أهمية التسامح، تتمثل في الاتي:

- الاحترام المتبادل بين الأديان والمذاهب.
- ثبات واستقرار المجتمع.
- ترسيخ قيم التعايش والحوار الحُرّ العقلاني.
- التغلب على المواقف التعصبية والتمييزية.
- الانفتاح بين الثقافات وتحقيق المكاسب المشتركة.
- احترام حريات الفرد وحقوقه.

نماذج للتسامح :

- **التسامح في الإسلام:**

إن التاريخ الإسلامي مليء بالوقائع التاريخية التي تحض على التسامح وتؤكد ضرورة التعاون بين الإنسان وأخيه الإنسان على الرغم من اختلاف الديانات وتعدد المِلَل، والمثال على ذلك صحيفة المدينة التي تهدف بالأساس إلى تنظيم العلاقة بين جميع طوائف وجماعات المدينة، وعلى رأسها المهاجرون والأنصار والفصائل اليهودية وغيرهم، حيث يتصدى بمقتضاه المسلمون واليهود وجميع الفصائل لأي عدوان خارجي على المدينة، والتي بها صارت جميع الحقوق الإنسانية مكفولة، كحق حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر، والمساواة والعدل. "فقد دُوِّن هذا الدستور – صحيفة المدينة – بشكلٍ يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء.

- ومن التسامح الإنساني والديني في الإسلام: البِرُّ إلى الأسرى مهما كان مقدار الاختلاف معهم. قال تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) (سورة الإنسان، الآية: ٨). ومعلوم أنه عند نزول هذه الآية: كان الأسرى كلهم مشركون.
- ومن التسامح في مجال العلاقات الاجتماعية: الكرم والإنفاق في وجوه الخير، والإيثار والمواساة، والتواضع، وحُسن الخلق، والعفو والإعراض عن الجاهلين، واحتمال الأذى، وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يزور غير المسلمين من اليهود والنصارى، ويكرمهم، ويُحسن إليهم، ويعود مرضاهم، ويتصدق عليهم، وقد تُوفِّي رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودي؛ لتأمين نفقة نساء النبي، مع كثرة من كان يستطيع أن يأخذ منهم بلا رهن من

المسلمين، ولكنه فعل ليُعلِّم أمته التسامح مع من يخالفهم في الدين.

- ومن التسامح في وسيلة الدعوة: أن تكون باللين والرفق، قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (سورة آل عمران، الآية: ١٥٩) وهذا التسامح ينطبق على الطغاة أيضًا، فقد قال الله تعالى لموسى وهارون لمَّا أرسلهما إلى فرعون: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (سورة طه، الآية: ٤٤).
- تسامح النبي مع قريش عندما فتح مكة ومواجهة النبي ﷺ لقوة كانت تتصدى له بكل ما أُوتيت من مال ورجال وعتاد، فلم يكن أحد أعدى للإسلام من أولئك الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم وقاتلوهم ثم صدوهم عن المسجد الحرام، ولكن حينما تمكن النبي منهم وعلت كلمة الحق عليهم قال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ.
- تسامح النبي مع وفد نجران: حينما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه بعد صلاة العصر فحانت صلاتهم فقاموا يصلون، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم فاستقبلوا فصلُّوا صلاتهم.

- **التسامح في الفلسفة الحديثة:**

لا بُدَّ لنا في البداية من القول أن الدعوة إلى فضيلة التسامح لدى كبار الفلاسفة جاءت نتيجة للتحوُّلات الأخلاقية الناتجة عن روح عصرَي النهضة والتنوير، وما صاحب ذلك من حروب دينية في مقدمتها حرب الثلاثين التي بدأت بين البروتستانت والكاثوليك، وما صاحبهما أيضًا من تطورات في مفهوم النزعة الإنسانية التي رسمتها قناعات فلاسفة هذين العصرين، والقائمة بالأساس على دعم مكانة العقل البشري في مقابل الفكر الغيبي كما تطرحه العقائد الكنسية.

- **جون لوك ورسالة التسامح:**

كتب (چون لوك) رسالة في التسامح، والتي جاءت في مقدمة وثلاثة اعتبارات، تهدف إلى الإقناع بأن قضية الإيمان بالعقيدة الدينية المسيحية هي أمر يخص الإنسان وربه ولا يجوز فرضها بالقوة عن طريق حاكم ديني أو مدني، في إشارة إلى الكنيسة ونُظُم الحكم السياسي

التي كانت تدور في فلكها، ورأى لوك تفرغ الكنيسة لأمور الآخرة وتفرغ الدولة والحكومات لأمور الدنيا، فكان ذلك أول دعوة لفكرة العلمانية الداعية لفصل الدين عن الدولة.

- **فرانسوا ماري ڤولتير ورسالة التسامح:**

من أشهر من كتب في موضوع التسامح من فلاسفة العصر الحديث نجد (ڤولتير) صاحب "رسالة في التسامح" Traite sur La Tolernce، والتي كتبها في غمرة غرق أوروبا في محيط التعصب الديني الذي ساد فرنسا على وجه الخصوص ضد الأقلية البروتستانتية، كما قام بالبحث في الوصايا القديمة والجديدة ليثبت أن التعصب الديني لا علاقة له بالأديان، وأن التسامح يمثل صلب العقيدة المسيحية، وفيما يلي شيء مما ورد في هذا الشأن من دعوة للتسامح، يقول (ڤولتير): "لقد وُجِد الدين ليجعلنا سعداء في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ أن نكون صالحين، وما العمل كي نكون سعداء في هذه الدنيا في حدود ما سمح به بؤس طبيعتنا؟ أن نكون متسامحين، ويضيف قائلًا: "إنه لمن منتهى الحمق أن يدَّعي مُدَّعٍ أنه قادر على حمل البشر قاطبةً على التفكير بطريقة واحدة في شئون الميتافيزيقا، فتطويع الكون برُمَّته بقوة السلاح أسهل بما لا يقاس من تطويع العقول في مدينة واحدة".

- **التسامح في الفكر المعاصر:**

لما كانت بذرة التسامح تتجذر بين حينٍ وآخر في أراضٍ قد توصف أحيانًا بأنها أراضٍ بور لا ينمو فيها زرع، فإنها كما شاء لها الله في العصور الغابرة أن تنمو في ظروف صعبة لتثمر وتتكاثر وتطغى على بذور التعصب والكراهية، نجدها تنمو في عصرنا هذا بين حينٍ وآخر بفضل الله – عز وجل – وأسبابه المختلفة المتمثلة في رجال السياسة الأخيار تارة، ورجال الدين تارةً أخرى، ولما كان عصرنا هذا يغلب عليه للأسف التعصب السياسي والتعصب الديني بين الأديان المختلفة وحتى الدين الواحد، فإن حكمة التسامح تطل من حينٍ إلى آخر كالنور الإلهي بين ظلمات صراعات التزمُّت الديني تارة، وبين أحفاد التميز العنصري تارة، وبين الصراعات السياسية المدفوعة بحب السلطة وشهوة التسلط تارة ثالثة.

ففي هذا العصر الذي تشهد فيه الأمة الإسلامية تناحرًا بين أبنائها بدعوى إصلاح الدين والدنيا والآخرة مدفوعةً بدعاوى الكفر والتكفير، يجد المسلمون أصحاب التسامح والحق أنفسهم،

أمام نصائح أعلام الأديان الأخرى لتذكِّرهم بنبع الخير في الإسلام، ومواقف النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – التاريخية في ظروف مماثلة لما نعيش فيها من تعصبٍ وكبرياء زائف.

وفي عصرنا هذا موقف إنساني ناضج من أتباع المسيحية يُذكِّر العرب والمسلمين بمواقف نبيهم الكريم الأخلاقية التسامحية، ونعني بهذا المناضل الأفريقي ضد التمييز العنصري في بلاده جنوب أفريقيا "نيلسون مانديلَّا"، الذي اعتبره الكثيرون أيقونة النضال والتسامح، فقد عاش هذا الرجل ٢٧ سنة في السجن بسبب نضاله ضد نظام الفصل العنصري في بلاده بين البِيض القلَّة والسود أهل الأرض؛ عندما خرج مانديلَّا من السجن تزعَّم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في جوهانزبورغ، ورفع شعار العدل والمساواة بين البيض والسود، ونبذ نظام الآبارتايد المفروض من الأقلية البيضاء في البلاد.

وعليه شاء نيلسون مانديلَّا أن يفوز في انتخابات رئاسية ديمقراطية في بلاده ليكون أول رجل أسود رئيسًا لجنوب أفريقيا، وفاز بجائزة نوبل للسلام إثر مواقفه غير الانتقامية مع من كانوا سببًا في تعذيبه وسجنه ما يزيد على ربع قرن.

قال (مانديلَّا) عند تولِّيه الرئاسية في عام ١٩٩٤: "ندخل في عهد البناء لمجتمع يكون فيه جميع مواطني جنوب أفريقيا السود والبيض على السواء، قادرين على السير برءُوس شامخة من دون أن يعتصر قلوبهم أي خوف، مطمئنين إلى حقهم الثابت بالكرامة الإنسانية.. أمة قوس قُزَح بسلام مع نفسها والعالم".

وشاء القدر لمانديلَّا بعد تقاعده أن يحضر ما يطلق عليه (الربيع العربي) وشاهد القتال الشرس بين المسلمين والتعصب الديني والسياسي الذي انتشر بين العرب والمسلمين، وتضاءلت دعوة الدين الإسلامي في التسامح، الأساسية في العقيدة الإسلامية، فآلى على نفسه أن يدعو أصحاب هذا الربيع إلى ما قام به نفسه في هذه الظروف من استبعاد العزل السياسي، والفصل العنصري، متخذًا من دعوته هذه تذكيرًا للمسلمين بمبادئ دينهم الحنيف، وأخلاق النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وفيما يلي موجز نصوص ما قاله مانديلَّا:

إخوتي في بلاد العرب، إخوتي في مصر وتونس أعتذر أولًا عن الخوض في شئونكم الخاصة، وسامحوني إن كنت دسستُ أنفي فيما لا ينبغي التقحُّم فيه؛ لكنني أحسستُ أن واجب النصح أولًا، والوفاء ثانيًا لما أوليتمونا إياه من مساندة أيام قراع الفصل العنصري يُحتِّمان عليَّ

رد الجميل وإن بإبداء رأي محصَّته التجارب وعجمته الأيام وأنضجته السجون.. أحبتي ثوار العرب، لا زلت أذكر ذلك اليوم بوضوح كان يومًا مشمسًا من أيام كيب تاون. خرجت من السجن خرجت إلى الدنيا بعد أن وُورِيت عنها سبعًا وعشرين سنة؛ لأني حلمت أن أرى بلادي خالية من الظلم والقهر والاستبداد، ورغم أن اللحظة أمام سجن ڤكتور فستر كانت كثيفة على المستوى الشخصي إذ سأرى: وجوه أطفالي وأمهم بعد كل هذا الزمن، فإن السؤال الذي ملأ جوانحي حينها هو كيف سنتعامل مع إرث الظلم لنقيم مكانه عدلًا؟ إن إقامة العدل أصعب بكثير من هدم الظلم، فالهدم سلبي والبناء إيجابي.

تخيلوا أننا في جنوب أفريقيا ركَّزنا – كما تمنى الكثيرون – على السخرية من البيض وتبكيتهم واستثنائهم وتقليم أظفارهم، لو حصل ذلك لما كانت قصة جنوب أفريقيا واحدة من أروع قصص النجاح الإنساني اليوم، أتمنى أن تستحضروا قولة نبيكم (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

ثانيـًا: قبول الآخر:

الآخر هو.. «كل البشرية». لا فرق بين لونٍ ولون، جنسٍ وجنس، دينٍ ودين، طائفةٍ وطائفة.

الآخر هو كل مَنْ يختلف عنا، أو نختلف عنه أو لا يشبهنا سواء من حيث اللون، الجنس، العادات، التقاليد، القيم، الفكر التوجه السياسي والديني.

وقبول الآخر هو قبول كل إنسان، في كل مكان وزمان.

ويعني أيضًا احترام الآخر وتقدير وتفهُّم ما لديه من مجموع المفاهيم التي ذُكرت سابقًا من أفكار وتقاليد وقيم.

أسس قبول الآخر

- الاهتمام بمشاعر الآخر: الاهتمام العميق بالآخرين ومشاعرهم واحتياجاتهم وآلامهم وأفراحهم، هو من أهم أسرار قبول الآخر. إن تقديمك لمشاعر المحبة والاهتمام الصادق، لا بُدَّ أن يثمر جاذبيةً في الشخصية وترحيبًا بك من القلب، وما أجمل عبارة مصطفى كامل الذى قال: «ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط» أي أنه لا تعدُّ حياته حياةً حقيقية، مَن يتمركز حول نفسه، ولا يخرج منها ليندمج بالحب مع الآخر، وقال الشاعر إيليا أبو ماضي:

يا صديقي أنا لولا أنت ما غنيتُ لحنًا .. كنت في قلبي لمًّا كنت وحدي أتغنَّى.

ولكي ندعم أواصر المحبة والترابط بيننا وبين الآخرين:

- ففي محيط الأسرة: عندما يشيع جوُّ المحبة والأُلفة والتضحية، يزيد الترابط بين أفراد الأسرة، وتقل المنازعات، ويزيد حجم التماسك الأسري، الذي به نستطيع أن نواجه ضغوط الحياة والمجتمع والظروف الخارجية، والتحديات التي تواجهنا.
- أما على نطاق الدراسة أو العمل: فإن ذلك يجعل من جو المدرسة أو الجامعة أو العمل جوًا دافئًا، مشبعًا، مبهجًا، يشعر فيه الإنسان بالأمان والانتماء. وهذه المشاعر تساعد على نمو الإنسان وتقدمه؛ خاصة أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، ولن يستطيع أن يعيش بمعزلٍ عن الناس.
- امتدح الآخرين وأشعرهم بتقديرك لهم: الحاجة إلى التقدير، تعدُّ من أهم احتياجات البشر، وهي رغبة متأصلة في النفس الإنسانية. وعندما تضع إنسانًا في مرتبة عالية اجتماعية فأنت تعطيه تقديرًا ساميًا يأسر قلبه في الحال، ويمنحه اعتبارًا كبيرًا، ويرفع من شأنه أمام نفسه، وأمام الآخرين. وبهذا يصير هذا الإنسان مقدِّرًا محبتك وتقديرك، قد يكون من الطبيعي أن تقدم التقدير لكل من هو كبير سنًا أو مكانةً، ولكن أن تقدم تقديرًا لمن هم أقل منك فهذا الأمر يستحق الثناء.
- تعلَّم فن الابتسامة: من أسرار قبول الآخر «الابتسامة»: فإن أردت أن يهرب منك الناس فارسُم على وجهك تجهُّمًا وكآبة ورفضًا للواقع وللآخرين، فأهم ملامح قبول الآخر هو الوجه، الذي هو واجهتك، فهو بطاقة التعارف التي تقدمها للآخرين، ومن خلال واجهتك هذه، تجذب الناس للتعامل معك، أو للنفور منك.

ثالثا: التعايش السلمى:

لغةً: تَعايَشَ: فعل، تعايشَ يتعايَشُ، تعايشًا، فهو مُتعايِش، وتَعايَشُوا: أي عاشوا على الأُلفةِ والمَوَدّةِ.

اصطلاحًا: اجتهد الباحثون في تعريف مفهوم التعايش السلمي، ومقارباته، وتوضيح المقصود به، فنجد أن بعضهم عبَّر عنه بالعيش والتعايش ضمن مصطلحات عدة، مثل: التسامح، والتقارب، والتساكُن، والتعاون، والتكامل، والتلاقي، والتجانس، وهو ما أفضى إلى تقسيم مدلول المصطلح إلى ثلاثة مستويات؛ الأول: سياسي أيديولوچي، والثاني: اقتصادي، والثالث ديني، ثقافي، حضاري، وهو الأحدث ويشمل – تحديدًا – معنى التعايش الديني، أو التعايش

الحضاري، ويقصد به التقاء إرادة أهل الأديان السماوية للعمل من أجل أن يسود الأمن والسلام في العالم.

والتعايش في المجتمع: يعني أنه مُجْتَمَعٌ طَائِفِيٌّ يَعِيشُ أَهْلُهُ فِي تَعَايُشٍ وَوِئَامٍ: أي يَعِيشُونَ فِي تَسَاكُنٍ وَتَوَافُقٍ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ عَلَى الرَّغْمِ مِن اخْتِلَافِهِمُ الدِّينِيِّ وَالْمَذْهَبِيِّ.

والتَّعَايُشُ السِّلْمِيُّ: تَعْبِيرٌ يُرَادُ بِهِ خَلْقُ جَوٍّ مِنَ التَّفَاهُمِ بَيْنَ الشُّعُوبِ بَعِيدًا عَنِ الحَرْبِ وَالعُنْفِ، والتعايُش «احترام الآخرين وحرياتهم والاعتراف بالاختلافات بين الأفراد والقبول بها، وتقدير التنوع الثقافي».

وظهرت صيغة التعايش السلمي رسميًا للمرة الأولى في نص اتفاقية «بانش شيلا» بين الصين والهند عام ١٩٢٢م، وتجلت معاني المصطلح دلاليًا بوضوحٍ في إطار المعنى السياسي بين النظامين الخَصْمين: الاشتراكي والرأسمالي، ويشار إلى أن أول من استخدم مصطلح التعايش السلمي هو الرئيس السوفيتي «خروتشوف»، ضمن تصور يحقق فيه أهدافه بطريقة تنسجم مع مقتضيات التغيرات التي تطرأ على المسرح الدولي، كوجود ما يعرف بتوازن الرعب، والحد من الصراع، أو العمل على احتوائه.

وعرفت «اليونسكو» التعايش في بيان لها بأنه احترام الآخرين، وحرياتهم، والاعتراف بالاختلافات بين الأفراد، والقبول بالآخر، وتقدير التنوع الثقافي.

كما عُرِّف بأنه: اجتماع مجموعة من الناس في مكان معين، تربطهم وسائل العيش من المأكل والمشرب وأساسيات الحياة بغَضِّ النظر عن الدين والانتماءات الأخرى، ويعترف كل منهما بحق الآخر دون اندماج وانصهار، أي أن يكون التعايش المطلوب مع مجموعة مختلفة في الدين أو اللون أو الطائفة أو القومية.

فالتعايش السلمي يدعو الناس إلى التسامح والتآخي، فإذا حققوا ذلك استطاعت مجتمعاتنا العربية والإسلامية؛ وكذلك دول العالم أجمع، رسم ملامح الحضارة الإنسانية المبنية على الحقوق والواجبات.

خصائص التعايش، تتمثل فيما يأتي:

- القول بحرية التديُّن والتركيز على القواسم المشتركة.
- منع كل ألوان الاعتداء على الآخر.
- منع الكراهة الدينية والدعوة إلى الإخاء الإنساني.

- المطالبة بالحرية الدينية للأقليات غير المسلمة في البلاد الإسلامية، والعكس بالعكس، والتعامل معهم على أساس الوحدة الوطنية.
- الإقرار بالأديان السماوية جميعًا.
- الاجتماع على تقوية الصلة بالله في النفوس؛ وخاصة بعد طغيان المادية وتفشِّي قيَمها المسيطرة على الشباب في العالم.
- البعد عن العنف والإرهاب والتطرف الديني والتكفير، وأيضًا البعد عن التدخل في خصوصيات الآخر الدينية.

مبادئ التعايش، من أهم مبادئ التعايش ما يلي:

- التعارف وكسر حواجز الجهل المتبادل، وتعميق عوامل الوئام الاجتماعي، لعلنا لا نبالغ حين القول بأن الحوار بين البشر هو الوسيلة المُثلَى للتعارف وإضاءة النقاط المظلمة في العلاقات بين البشر؛ لذلك أكَّد القرآن الحكيم هذه القيمة، واعتبر أن التعدد والاختلاف الموجود بين البشر، ليس من أجل الاستعلاء والانزواء، وإنما هو من أجل التعارف وكسر حواجز الجهل المتبادل، وصولاً إلى تعميق عوامل وأواصر التفكير الحر والسليم.
- التعاون، إذ إننا مطالبون أن نوصل مفهوم التعارف بيننا إلى مستوى متقدم يؤهلنا نفسيًا وعمليًا للتعاون، حيث إننا كمجتمعات، لا يمكن أن نثبت مفهوم التعايش السلمي بدون تطوير مستوى التداخل والتعاون بين مُكوِّنات الأمة والمجتمع والوطن؛ إذ إن وحدة المجتمعات، بحاجة إلى تشابك مصالح مكوناتها، وتعاون أُطُرها ومؤسساتها في سياق تعميق هذا الخيار، وتجذير مشروع التعايش السلمي.
- العدل، وذلك لأن تجاوز حقوق الآخرين، والتعدي على خصوصياتهم، يفضي إلى غياب الاستقرار السياسي والاجتماعي، ولا تعايش سلمي بدون استقرار، ولا استقرار بدون عدل بحيث يُعطى كل ذي حق حقه؛ لذلك فإن من المبادئ الأساسية للتعايش السلمي، هو ترسيخ مبدأ العدالة في الواقع الاجتماعي بحيث يسود هذا المبدأ، الذي هو أساس الاستقرار في العلاقات الاجتماعية وأنماط التواصل بين مختلف شرائح وفئات المجتمع.
- التسامح، أحد مرتكزات التعايش السلمي بين الشعوب والأمم، ولكن ليس من التسامح في شيء تصديق كل ما يقال من رأي يطرح وإقرار كل مبدأ ومباركة كل تصرف أو موقف وإن

كان على خطأ أو باطلًا، وليس معناه ألَّا يقال للحق أنه حق. التسامح، في جوهره، احترام قيم وموروثات الآخرين، وليس بالضرورة اتباعها، فالتسامح ضرورة حياتيَّة، بعد تحقيق العدالة، والتعويض العادل وجبر الضرر، وأنَّ الغلو في العداوة، والشطط في الخصومة، هما موردان من موارد الهلاك، فالبشرية مجبولة على الخطيئة، وهذا ليس تبريرًا لوقوع الظلم، وإنما إقرارٌ بواقعية الحياة، وعلى الأفراد والجماعات التحوُّط لوقوع الظلم، والاحتراس منه، والاستعداد للتصدي له.

- الديمقراطية، وذلك بتهيئة المجتمعات لتبنِّي نظام ديمقراطي يوفر الفرص لشرائح المجتمع المدني كافة، وتكفل الأنشطة الجماهيرية للأحزاب ونقابات ومؤسسات المجتمع المدني، وتشجيعها على تقديم مشاريعها الإصلاحية للمواطنين من أجل اختيار الأصلح منها.

وإضافة لما سبق طرحت الصين مع الهند وميانمار عام ١٩٥٤، المبادئ الخمسة للتعايش السلمي: الاحترام المتبادل للسيادة ووحدة الأراضي، عدم الاعتداء المتبادل، عدم التدخل في الشئون الداخلية بصورة متبادلة، المساواة والمنفعة المتبادلة، والتعايش السلمي، لقد كان ذلك عملًا عظيمًا في تاريخ العلاقات الدولية، وقدم إسهامًا تاريخيًا في دفع بناء نمط جديد للعلاقات الدولية العادلة والسليمة.

رابعًا: نماذج عالمية للتعددية الثقافية وقبول الآخر:

يختلف تعامل البلدان الأوروبية المُستقبِلة للمهاجرين بشكلٍ واضحٍ مع الثقافة الأصلية للمُتحدِّرين من أصول عربية إسلامية بشكلٍ عام، ويخضع ذلك قبل أي شيء آخر، لنموذج الاندماج المعمول به في كل بلد.

- **بالنسبة إلى النموذج الفرنسي** يعتمد ما يسمى بالنموذج الانصهاري، والذي يرمي إلى تذويب ثقافة المتحدرين من أصول أجنبية في الثقافة الفرنسية في ظرفِ جيلٍ واحد، ويعدُّ ذلك شرطًا أساسيًا حتى يعترف بهم المجتمع الفرنسي بشكلٍ رسمي، من هذا المنطلق يرفض النموذج الفرنسي تعدد الثقافات في المجتمع، ويعدُّها خطرًا على فرنسا وهُويَّتها، وهو يستند على الوحدة السياسية والترابية والثقافية وليس على الوحدة الدينية أو العرقية كما سلف ذكره؛ لذا فهو لا يقبل ما يسمى بالأقليات؛ لأنها حَسَبَه، تعرقل المُواطنَة التي تعدُّ الغاية الأساسية لتحقيق التلاحم الاجتماعي، بمعنى أن المجتمع الفرنسي مكون من مواطنين وليس من أقليات أو من جاليات عِرْقية

أو دينية أو ثقافية. ورغم أن هذا النموذج الفرنسي يتفادى الحديث عن "المواطنة العابرة للحدود" والتي تجعل المتحدرين من أصول أجنبية يرتبطون كذلك بأوطان وثقافة الآباء، فإنه يرى في هذه المواطنة العابرة للحدود إضعافًا للمواطنة الفرنسية.

ويلتحق الطفل بالمدرسة في فرنسا في سن الثالثة، ويكون ملزمًا بالاستمرار بها إلى الخامسة عشرة (مرحلة التعليم الإجباري)، وخلال ١٢ سنة من الدراسة، يتعلم اللغة وطريقة التفكير الفرنسية، ويحرص النموذج الفرنسي على وصول أكبر عدد من التلاميذ إلى الجامعة، بحيث تبلغ نسبة المتحدرين من أصول عربية الذين يصلونها إلى ٣٠٪، وهي من أعلى النسب المسجلة في البلدان التي تستقبل "المهاجرين"، وبحكم أن التعليم عَلْمَانيّ، فالدين لا مكان له في المدرسة العمومية، أما اللغات الأجنبية فتدرس وفق شروط خاصة، ورغم أن العربية هي اللغة الثانية في فرنسا من حيث عدد المتكلمين، ورغم أنها أُعتُبرت منذ سنة ١٩٩٩ "لغة فرنسا"، بعد توقيع "الميثاق الأوروبي للغات الجهوية ولغات الأقليات"، فإن حضورها لا يزال محدودًا جدًا في المدرسة العمومية، بحيث لا يتجاوز عدد الذين يدرسونها في الإعدادي والثانوي كلغة ثانية ٦٠٠٠ من مجموع ٥ ملايين تلميذ، وهو ما يمثل أقل من ١٪، مقابل ٩٨ ٪ يدرسون الإنجليزية، غير أن هناك حضورًا أكبر للغة العربية في التعليم الابتدائي، إذ يصل عدد التلاميذ إلى ٤٠ ألفًا، أما السبب، فهو أن تعليم العربية في المستوى الابتدائي يتم بتعاون بين الحكومة الفرنسية وحكومات البلدان العربية، التي ينتمي إليها أغلب المتحدرين من أصول مسلمة في فرنسا.

– **بالنسبة إلى النموذج البريطاني** فهو يقول بالتعدد الثقافي، وهناك اعتراف رسمي بوجود مجتمع متعدد الأعراق والعادات والثقافات، وكل مجموعة لها خصوصياتها التي لا يجب مَحوُها من أجل تحقيق الاندماج، بل يمكن تحقيقه مع الحفاظ عليها. ولا يثير موضوع الاندماج نفس النقاش والجدل الإعلامي الذي يثيره في فرنسا؛ لأن قضية الاندماج ليست مطروحة على المستوى العمومي وإنما على المستوى الخصوصي، ويسعى النموذج البريطاني إلى خلق وعي جماعي بوجود قواسم مشتركة تتمثل في انتماء الجميع إلى مجتمع واحد هو المجتمع البريطاني.

وتسهر الحكومة على توفير الآليات التي تضمن نوعًا من العلاقة السَّلِسَة بين مختلف الأقليات الدينية والعرقية والثقافية، مثل تشجيع إنشاء المدارس التي تسمح بالحفاظ على الثقافة الأصلية لهذه الأقليات، وتفوض من أجل ذلك للجمعيات والهيئات الدينية التابعة للأقليات، السهر على وضع برامج التعليم ومراقبته بهذه المدارس، وتقدم لها الدعم المالي اللازم. ورغم هذه

التسهيلات، لا يزال عدد المدارس التي تقوم بتعليم الثقافة العربية والإسلام محدودًا. أما السبب فهو أنها وعلى غرار بقية مدارس الأقليات، تتحول في الكثير من الأحيان إلى "غيتوهات ثقافية"، كما أن المردودية بها هي أضعف من تلك المسجلة في المدارس العمومية، ويجد أطفال هذه المدارس صعوبة في إتقان اللغة الإنجليزية، ولا تتجاوز نسبة من يصل منهم إلى الجامعة ١٣٪.

- **أما بالنسبة إلى النموذج الهولندي**؛ فلا يختلف في الاندماج إلا بشكل محدود عن النموذج البريطاني، بحيث يقول هو الآخر بالتعدد الثقافي، إلا أن مدارس الأقليات لها حضور أكبر من بريطانيا، إذ تمثل أكثر من ثلاثة أرباع مدارس البلاد، وتسمى "المدارس الخاصة"، وهي مُموَّلة ومراقبة من طرف الدولة، ولها نفس الصفة القانونية التي للمدارس العمومية والتي لا يتجاوز عددها ربع مجموع المدارس، كما أن الاهتمام بالثقافة العربية الإسلامية هو أكبر من ذلك المسجل ببريطانيا، ويصل عدد المدارس العربية التي تشرف عليها الحكومة إلى قرابة ٤٥، يدرس بها أكثر من ١٠ آلاف تلميذ أغلبهم من أصول مغربية غير أن هذه المدارس عرفت تراجعًا في المدة الأخيرة، بحيث أغلقت ثانوية أمستردام الإسلامية أبوابها سنة ٢٠١٢، وبقيت في كل هولندا ثانوية واحدة؛ هي ثانوية ابن خلدون التي أصبحت هي الأخرى مهددة بالإغلاق، ومن أسباب تراجع الإقبال على المدارس الخاصة بالجالية المسلمة ضعف النتائج مقارنةً مع المدارس العمومية، وسوء التسيير الإداري والمالي.

ويفضل العديد من المهاجرين في الوقت الحاضر إرسال أبنائهم إلى المدارس العمومية، لكن دون التفريط في اللغة والثقافة العربية الإسلامية؛ لذا كانت هناك مبادرات لإدراج هذه الثقافة في المدرسة العمومية، غير أن تلك المحاولات لم تُكلَّل لحد الآن بالنجاح؛ فقد رفضت محكمة في لاهاي، في نوفمبر ٢٠١٣، دعوى تقدمت بها ثلاث منظمات مغربية وتركية ضد الدولة الهولندية، تطالب فيها بتعليم اللغة والثقافة الأصليتين للمتحدرين من أصول أجنبية في المدارس العمومية الهولندية.

وحسب قوانين التعليم الهولندية، كل المدارس الابتدائية والإعدادية ملزمة بتعليم مادة الأخلاق والتي تقدم ضمن أشياء أخرى، معلوماتٍ عن مختلف الديانات. غير أن أغلب مدارس الأقليات تستغل ذلك للتركيز على ديانتها، حيث تزيد من عدد ساعات تدريسها، وتستدعي مرشدين ورجال دين لتلقينها.

- **أما بالنسبة إلى إسپانيا**؛ فنموذجها في الاندماج والذي يتأرجح بين النموذجين:

الفرنسي والبريطاني (لم يُحسم بعد هل الانصهار أم التعدد الثقافي)، فيطرح إشكالًا كبيرًا بسبب خصوصية الإسلام الإسپاني؛ لأنه غير مرتبط في جذوره بالمهاجرين المسلمين، وإنما بالإسپان أنفسهم، لأن الهجرة ظاهرة حديثة نسبيًا، وعندما عادت الديمقراطية إلى إسپانيا، ومعها التعددية السياسية والدينية، طفت إلى السطح مجموعات كشفت أن التقاليد الإسلامية لم تختفِ بينها منذ المرحلة الأندلسية، بحيث تم توارثها أحيانًا في الخفاء، وقد بدأ الآلاف باعتناق الإسلام، وتأسس حزب سياسي بمنطقة الأندلس، هو "الحزب الأندلسي"، الذي يعتبر الإسلام والحضارة الأندلسية مُكوِّنين أساسيين في مشروعه السياسي والفكري.

وسيدخل هذا التيار في مواجهة مع التيار المسيطر في إسپانيا والذي يعتبر الوجود العربي الإسلامي احتلالًا، وأن إسپانيا تأسست ككيان بسبب حربها على الإسلام؛ وأن المواطن لا يمكن أن يكون إسپانيًا ومسلمًا في الوقت ذاته. ولا تزال المواجهة الإيديولوچية قائمة بين التيارين، بسبب الطريقة التي يحاول بها كل طرف تسخير التاريخ من أجل تكريس مفهوم المواطنة بالشكل الذي يراه هو، وتنظم سنوية يوم ٢ يناير بمدينة غرناطة احتفالات سقوط غرناطة، حيث يخرج إلى الشارع الآلاف، وتقع أحيانًا مواجهات بين اليمين المتطرف ودُعاة الإسلاموفوبيا من جهة، وبين المسلمين الإسپان الذين يرفضون تلك الاحتفالات، ويعتبرون أنها تستهدفهم مع أنهم مواطنون إسپان، ويدافعون عن موقفهم بجملة تقول: "بماذا سنحتفل نحن لم نفقد شيئًا ولم نربح شيئًا؛ لأن إسپانيا هي الأندلس والأندلس هي إسپانيا".

أما بخصوص تعليم الثقافة العربية الإسلامية في المدرسة العمومية، فقد التزمت به الدولة منذ سنة ١٩٩٢، من خلال اتفاقية وقَّعتها مع "اللجنة الإسلامية الإسپانية"، غير أن ذلك لا زال يعرف صعوبات كبيرة في التطبيق، فالاتفاقية تقول بأن الحكومة ملزمة بتوفير أستاذ بكل مدرسة يوجد بها عشرة تلاميذ كحد أدنى، عبروا عن رغبتهم في تعلُّم الإسلام والثقافة العربية، لكن هذا لم يتحقق على أرض الواقع. ويشترط في المعلمين أن يتخرجوا في الجامعات الإسپانية، أو أن يحصلوا على معادلة لشهادتهم الجامعية بتلك التي تمنحها وزارة التعليم العالي الإسپانية، كما أن لِلَّجنة الإسلامية في إسپانيا حق انتقاء أساتذة اللغة العربية بتنسيق مع وزارة التعليم الإسپانية.

- **وفي بلچيكا**، رغم أن الدولة لا تتدخل في الشأن الديني، فإن السياسات الحكومية في مجال التعليم تحترم الخصوصيات الدينية للأقليات، وتتولى وزارة الشئون الدينية تمويل

المؤسسات الدينية المكلفة بالإشراف على التعليم الديني في المدارس العمومية، والتي يمكن للأطفال الذين يدرسون بها أن يختاروا خلال مرحلتَي التعليم: الابتدائي والإعدادي بين مادتَي الديانة والأخلاق العلمانية، وكانت المدرسة العمومية في بلـچيكا سباقة لتعليم الإسلام والثقافة العربية، حيث تقرر إدراجهما في برامج الدراسة منذ ١٩٧٤. وتقدم المدارس العمومية التي بها مطاعم وجبات خاصة بأبناء المسلمين، ويشرف المركز الإسلامي ببروكسيل التابع للدولة، على التعليم العربي الإسلامي بالمدارس العمومية. ويوجد قرابة ٧٠٠ مدرس لهذا الغرض، يحصلون على رواتبهم من الحكومة البلـچيكية.

- **وبالنسبة إلى الصين**، يعد التفاعل بين المسلمين والصينيين تفاعلَ علمٍ وحكمة ولم يكن تفاعلًا عدوانيًا ولا عسكريًا، بل كان تفاعلًا سياسيًا وسلميًا قام على مفهوم تبادل المصالح والتأثير المتبادل من الطرفين، حيث استفاد المسلمون من الصينيين في مجالات الطب والصيدلة والملاحة البحرية وصناعة الخزف، بالإضافة إلى العلوم الأخرى التي حدت بالمسلمين ليقولوا نقلًا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – "اطلبوا العلم ولو في الصين". وكانت الصين أكثر تقدمًا من غيرها من الدول عندما ظهر الإسلام، وتعد الصين أكثر الحضارات سلمية ولم تخرج غازيةً لأراضٍ أخرى كما حدث من الشعوب والحضارات الأخرى.

أما بالنسبة إلى مبدأ التوافق واستيعاب الآخر، فكانت المدارس الفكرية تتبارى أو تتصارع سلميًا وتعيش الكونفوشية مع البوذية مع الطاوية وهكذا، ولعل الحكمة الصينية التقليدية قولهم: «دَعْ مائة مدرسة فكرية تتبارى ومائة زهرة تتفتح». وقد استفاد الصينيون من التقدم العلمي في الحضارة الإسلامية، في فن العمارة وعلوم الفلك ومن الإدارة الإسلامية عندما حكم بعض المسلمين العرب في بعض مناطق الصين، وهم لم ينكروا ذلك بل إن مُتْحَف الحضارة والثقافة العربية الإسلامية في مدينة شوانـچو خير شاهد على ذلك.

راجع في ذلك:

- ابن منظور، لسان العرب ، مادة سمح ، المجلد ٦، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧.
- حنان كمال أبو سكين: التعددية الثقافية وإشكالية التطبيق، مركز الدراسات الاستراتيـچية، ٢٠١٤.
- عبد الحليم ندا: الحضارة العربية الإسلامية وتفاعلها مع الحضارات الإنسانية، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، العدد (٨)، أكتوبر، ٢٠١٧.

- عبد الواحد أكمير: كيف دبر مغاربة أوروبا التعددية الثقافية؟ (الجيل الثاني والثالث)، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، أكتوبر، ٢٠١٦.
- عبد ربه عبد القادر حسن العنزي: التعايش السلمي من منظور إسلامي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، العدد (٤١)، ٢٠١٧.
- محمد محمد سليم أحمد: دور جماعات النشاط في تنمية قيم التسامح لدى أعضائها، مجلة دراسات في الخدمة الاجتماعية والعلوم الإنسانية، المجلد (٣) العدد (٥٠)، أبريل، ٢٠٢٠.
- مقبولة مسعود علي العوامي: الجذور المعرفية والفكرية للتسامح الديني في الحضارة، المجلة الليبية العالمية، العدد (٢٠)، كلية التربية بالمرج – جامعة بنغازي، مايو، ٢٠١٧.
- هيئة التحرير: التسامح الديني وثقافة الاختلاف، مجلة المشكاة – جامعة الزيتونة، العدد (١٥)، ٢٠١٧.

التنمر الإلكتروني لدى الأطفال

د. داليا الجيزاوي *

يعد التنمُّر أحد الظواهر السيكولوچية التي اهتمت بها الدراسات الحديثة؛ نظرًا لازديادها وانتشارها في العقود الأخيرة خاصة في البيئة المدرسية. فسلوك التنمر يعد بمثابة انعكاس لاضطرابات نفسية عديدة لدى المتنمر، كما أن التعرض للتنمر يسبب العديد من الاضطرابات النفسية والسلوكية لدى الضحية. وتعدُّ سلوكيات التنمر التي يتعرض لها الأطفال سواء داخل أم خارج المدرسة، من ضمن الأسباب التي تُسهم في ظهور أنماط سلوكية غير سوية للأطفال، والتي من شأنها أن تسبب في مشاعر الضيق والتأزُّم النفسي والشعور بالضعف وفقدان الثقة بالنفس والقلق والتوتر ومحاولات التعايش مع المواجهة المباشرة للمتنمر.

ومع توافر أدوات التكنولوچيا الرقمية الحديثة والتي أتاحت فرص التواصُل الاجتماعي بين مستخدمي الإنترنت والهواتف الذكية واستخدامها في توجيه الإيذاء وافتعال المضايقات للغير؛ مما يُلحق الضرر النفسي للضحية – ظهر ما يُسمى بالتنمر الإلكتروني Cyber-bullying، وهذا النوع من التنمر يمكن أن يكون مدمرًا مثل التنمر في الحياة الواقعية. ففي بعض الحالات يكون التنمر الإلكتروني بمثابة امتداد للتنمر الحقيقي الذي يقع في المدارس.

ويعدُّ التنمر الإلكتروني من أكثر صور التنمر انتشارًا؛ لتوافر فرصة التخفي للمتنمر وعدم المواجهه المباشرة وإخفاء المتنمر لشخصيته الحقيقية، وهو ما يوفر له أحيانًا فرصة انتحال صفة شخصيات أخرى وهمية؛ مما يجعل الإنترنت كبيئة افتراضية مجالًا خصبًا للتنمر لإلحاق الأذى والضرر للآخرين خاصةً مع إفلات المتنمر من العقاب؛ مما يتطلب توعية الأطفال وتدريبهم لمواجهة تلك الظاهرة وحمايتهم من التعرض للتنمر الإلكتروني. حيث يتعرض ضحايا التنمر من الأطفال

* متخصصة في نظم المعلومات وباحثة في شئون التنمية المجتمعية – مصر.

إلى الإصابة ببعض الاضطرابات السلوكية اللاحقة، حيث أظهرت العديد من الدراسات ارتباط التنمر الإلكتروني بالمشاعر الاكتئابية (Baker & Tanrikulu,2010)[1]، وهو ما يلقي بظلاله السلبية على نشأة الطفل الذي يتعرض لهذا التنمر؛ لما يسببه له من عدم الأمان وتدنِّي تقدير الذات والقدرة على التحصيل الدراسي إضافة إلى الصعوبات الاجتماعية؛ مما يتطلب التصدي للظاهرة وتنمية مهارة الطفل لمواجهة التنمر الإلكتروني.

التنمر الإلكتروني للأطفال في ظل جائحة الكورونا[2]

وفقًا للدراسات السلوكية التي تمت خلال إجراءات العزل بسبب جائحة كوفيد -١٩، فإن أكثر من ١,٥ مليار طفل ظلوا بمنازلهم الأمر الذي يدفعهم للاتصال بالإنترنت لتحصيل دروسهم وهواياتهم؛ مما جعل هؤلاء الأطفال يدخلون عالم الإنترنت في سن أصغر ويقضون وقتًا أطول على اتصال بالشبكة الدولية، كما أصبحوا أكثر عُرضةً للتنمر الإلكتروني. وهو الأمر الذي أتاح لكثير من الأطفال الدخول على الإنترنت في سن أصغر بكثير مما كان يخطط له أولياء أمورهم وبدون المهارات اللازمة لحماية أنفسهم، سواء من المضايقات على الإنترنت أم من التنمر الإلكتروني.

فهناك طرق كثيرة لإذلال وتهديد الأطفال عبر الإنترنت ، وبما أن الضرر غالبًا ما يكون نفسيًا، فإنه ينتقل إلى العالم الحقيقي، وبذلك تصبح التهديدات التي يشكلها التنمر الإلكتروني أمرًا واقعًا.

أسباب التنمر:

قد يتعرض الطفل للتنمر من أقرانه من الأطفال الآخرين، حيث يسعى الطفل المتنمر عادة لتحقيق عدة أمور؛ منها:

١. رغبة الطفل وخاصة المراهق للفت انتباه الآخرين له وأن يكون مصدرًا للإثارة.

٢. محاولة الخروج من الإحباطات الشخصية والظهور كشخص قوي وصلب.

---

١ Baker& Tanrikulu. (2010). "Psychological consequences of cyber bullying experience among Turkish secondary school children" , Procedia social and behavioral sciences, 2(2),2771-2776.

٢ كورونا يفتح شاشات التنمر الإلكتروني أمام الأطفال؛ https://middle-east-online.com

٣. رغبة كبيرة في إظهار القوة والسيطرة.
٤. الشعور بالغيرة من الشخص المتنمر به لأسباب مختلفة؛ منها الغيرة من مشاعر الوُدِّ التي يحظى بها الآخرون.
٥. أسباب أسرية ترجع لطريقة التربية الخاطئة وعدم ملاحظة الآباء لسلوكيات أبنائهم غير السوية والبيئة التي يعيش بها المتنمر.
٦. الإعلام والثورة التكنولوچية الحديثة والتي توجه بأن العنف ضروري للسيطرة على الآخرين.
٧. الأسباب السيكوسوسيولوچية، حيث ترى بعض الدراسات العلمية أن كثيرًا من المتنمرين يعانون ظروفًا اقتصاديةً غير مستقرة.
٨. قد يكون المتنمر نفسه ضحية أيضا للتنمر الإلكتروني.
٩. ما توفره وسائل التواصل الاجتماعي والإنترنت من التخفِّي وإمكانية انتحال صفات وهمية وعدم المواجهة المباشرة مع من يقومون بالتنمر بهم.

أشكال التنمر الإلكتروني بين الأطفال

تختلف أنواع التنمر الإلكتروني، لكن أكثر أشكال التنمر التي تحدث بين الأطفال والمراهقين تكون عن طريق المزاح، حيث يتعللون بذلك[٣] فيحاول المتنمر إخفاء تنمره بهذه الطريقة.

وهناك نوع آخر من التنمر الإلكتروني يعتمدُ فيهِ الطفل المُتنمِّر على عزل الضحيَّة وتهميشهِ، كأن يقوم بطردهِ من نشاطٍ ما أو مجموعةٍ ما على الإنترنت، أو أن يدعو جميع أصدقائهِ على الفيسبوك باستثناء الطفل الضحيَّة، ويوضح لهُ أنه استثناه لأنَّه لا يرغب بوجودهِ في مجموعتهِ؛ لأنهُ مُملّ وغير مهم على الإطلاق.

وقد يقوم الطفل المتنمر بمحاولة تشويه صورة المتنمر به أمام أقرانه بأشكال مختلفه ومُهينة، فقد ينسب إليه قصصًا غير صحيحة ونشر شائعات عبر الرسائل الفورية والرسائل النصية، أو عن طريق تحميل صور محرجة تسيء بالمُتنمَّر به.

آثار التنمر الإلكتروني [٤]

وفي محاولةٍ لتوعية الأطفال وصغار السن للتصدي للتنمر الإلكتروني عبر منصَّتها الإلكترونية

٣ موقع اليونيسف: التنمر الإلكتروني ما هو وكيف يمكن إيقافه؟ https://www.unicef.org
٤ موقع اليونيسف – مرجع سابق.

عند حدوث التنمر الإلكتروني، تناولت اليونسيف في إحدى دراساتها الآثار السلبية للتنمر من الشعور بالعُرضة للهجوم في كل مكان، حتى داخل المنزل، فقد يبدو الأمر بلا مفر، فتستمر التأثيرات لأمدٍ طويل كما تؤثر على الشخص بعدة طرق:

عقليًا – الشعور بالضيق والحرج وحتى الغضب.

عاطفيًا – الشعور بالخجل أو فقدان الاهتمام بالأشياء التي تحبها.

الإنهاك جسديًا (الأرق)، أو المُعاناة من أعراض مثل آلام المعدة والصداع.

وقد يؤدي ذلك إلى امتناع الطفل عن التحدث أو محاولة التعامل مع المشكلة. كما أنها قد تؤدي إلى الشعور بتدنِّي احترام الذات والتعرض للمشاكل الصحية والتأثيرات السلبية على التحاق الطلاب بالمدارس والتحصيل الدراسي.

كيفية التعامل مع التنمر والحد منه:

١. ترسيخ مفاهيم التربية الرقمية والوعي المعلوماتي والهوية الافتراضية لدى الأطفال والمراهقين وأسرهم.

٢. للأسرة دورٌ مهمٌّ في الحد من التنمر فلا بُدَّ من شرح مفهوم التنمر الإلكتروني والتنمر عمومًا بكل أشكاله للطفل، وتشجيعه على التحدث مع والديه إذا تعرضوا إلى أي نوع من أنواع التنمر في أي وقت، والتأكد أيضًا أن الطفل نفسه لا يقوم بالتنمر على الآخرين، وأن يوضح لهم تأثير ذلك عليهم وعلى الضحية.

٣. أن تكون الأسرة على دراية بكل الأنشطة التي يمارسها الأطفال بعد المدرسة وعلى معرفة جيدة بأصدقائهم، فمن المهم أن يمتد إشراف الوالدين إلى أنشطتهم على وسائل التواصُل الاجتماعي.

٤. إذا كان الطفل من المتنمرين عبر الإنترنت، فيجب على الأسرة وضع قواعد صارمة بشأن السلوك الملائم لاستخدام الإنترنت.

٥. يمكن الحصول على دعم قانوني معين؛ خاصة إذا كان شخصٌ بالغٌ طرفًا في المشكلة، حيث تصبح المسألة في مستوى جريمة المطاردة أو التحرش الإلكتروني.

٦. لا بُدَّ وأن تكون المدرسة مهتمة بقضية التنمر، وتقوم بتوعية التلاميذ حول هذه الظاهرة الخطيرة.

المراجع

١. مجدي محمد الدسوقي (٢٠١٦). مقياس السلوك التنمري للأطفال والمراهقين، القاهرة، جواما للنشر والتوزيع.

٢. سلوى محمد عبد الباقي (٢٠١٧)، علم النفس الاجتماعي. رؤية معاصرة (ط٢)، القاهرة: مركز الإسكندرية للكتاب.

٣. أحمد خليل القرعان (٢٠٠٤). الطفولة المبكرة، خصائصها مشاكلها، حلولها، عمان: دار الإسراء للنشر والتوزيع.

4. Baker& Tanrikulu. (2010). "Psychological consequences of cyber bullying experience among Turkish secondary school children" , Procedia social and behavioral sciences, 2(2),2771-2776.

5. Bellmore,A., Chen, W. & Rischall, E.(2013) "The reasons behind early adolescents responses to peer victimization" , Journal of Youth Adolescence, 42(2), 275-284.

التنمر بالأطفال الذين يعانون متلازمةَ إرلن

رشا أنور *

"**التنمر**" أصبح ظاهرةً سلبيةً منتشرةً في المجتمع العربي، يعاني منها فئات كثيرة من الأطفال المختلفين، يجب علينا جميعًا أن نقاومها ونحاول بكل السبل توعية المجتمع بمخاطرها وآثارها السلبية. تغيير ثقافة مجتمعاتنا العربية وإعلاء قيمة تقبُّل الآخر بكل اختلافاته، هو السبيل نحو مجتمعات مترابطة يحظى فيها الجميع بالسلام ويحصل فيها الأطفال من كل الفئات على حقوقهم كاملة. من ضمن الفئات التي تتعرض للتنمر فئة الأطفال الذين يعانون متلازمةَ إرلن. فيما يلي عرضٌ لمعاناة هؤلاء الأطفال على الأصعدة المختلفة، الأكاديمية والرياضية والاجتماعية، ثم أوجه التنمر الذي يتعرضون له في كل من هذه الأصعدة، قبل وبعد تشخيص وعلاج متلازمة إرلن. ثم نعرض في ختام المقال توصياتنا لكُلٍّ من الأهل والمدرسة والمجتمع؛ للتعامل مع مشكلة التنمر بالأطفال الذين يعانون متلازمةَ إرلن.

أولًا: الناحية الأكاديمية

المشاكل المرتبطة بمتلازمة إرلن تنعكس على الناحية الأكاديمية والدراسية للطفل الذي يعاني متلازمةَ إرلن. فهو لا يستطيع القراءة من الكتاب أو السبُّورة مثل زملائه في الصف الدراسي. قراءته قد تكون بطيئة ومتقطعة، ولا يفهم ما يقرؤه أو يفهمه بصعوبة. في أغلب الأحوال لا يستطيع نسخ ما تكتبه المعلمة على السبورة، فهو إما ينسخ الكلمات بصورةٍ خاطئة، أو لا يستطيع نسخ ما هو مكتوب بصورة كاملة قبل أن تمسحه المعلمة، أو ينسخ بخطء رديء غير مقروء لا يستطيع هو نفسه أو معلمته قراءته، أو والدته عندما يعود للمنزل. كتابتُه من حيث الخط غير واضحة وغير متناسقة، لا يكتب على السطر، لا يترك مسافاتٍ متساويةً بين الحروف

* مديرة مركز إرلن مصر، مُشخِّصة متلازمة إرلن ومدربة معتمدة من معهد إرلن الدولي بالولايات المتحدة الأمريكية.

والكلمات. وكتابته أيضًا من حيث التعبير غير منظمة، وأفكاره غير واضحة. وقد يكتب فقرة أو صفحة دون أي علامات وقف، سواء فصلة أم نقطة، فلا يفهم القارئ بسهولة ما يريد التعبير عنه. وقد تنعكس متلازمة إرلن على أدائه في مادة الحساب والرياضيات، فهو قد يرى الأرقام والعلامات والإشارات بصورة خاطئة فيؤثر ذلك على مستواه وفهمه ودرجاته. ونظرًا لانخفاض مستوى القراءة، فمما لا شك فيه أن ذلك سيؤثر على جميع المواد الأخرى مثل العلوم والدراسات الاجتماعية؛ وخاصة مادة الجغرافيا التي تحتوي على خرائط بها كثيرٌ من التفاصيل لا يستطيع أن يراها بصورة واضحة. أضف إلى كل ذلك تأثير متلازمة إرلن على انتباهه وتركيزه وذاكرته نتيجة الإجهاد الذي يتعرض له الدماغ؛ نتيجة وجوده طول اليوم الدراسي في بيئة مُحفِّزة لظهور أعراض متلازمة إرلن، سواء بسبب الإضاءة الساطعة، والسبورة والجدران البيضاء، وعدم السماح له بأخذ استراحات قصيرة كافية أثناء اليوم الدراسي الطويل.

قبل تشخيص وعلاج متلازمة إرلن، دائمًا ما يُلام الطفل، سواء من معلميه أو من عائلته، على تهاونه وعدم بذله مجهودًا كافيًا للتعلُّم والحصول على درجات جيدة في الاختبارات. وقد يتعرض ليس للوم فقط، ولكن أيضًا لسوء المعاملة والسخرية والتنمُّر من هؤلاء الكبار. وقد مر علينا بعض حالات التنمر

وسوء المعاملة من المعلمين وصلت إلى حد إلقاء كراسة الواجبات في وجه التلميذ أمام زملائه في الفصل؛ لعدم قدرته على استكمال المطلوب، أو القيام به بصورة مقبولة بالقدر الكافي من وجهة نظر المعلمة. أطفالٌ آخرون قد يتعرضون إلى الطرد من الحصة لعدم قدرتهم على الجلوس هادئين أثناء الشرح، أو لعدم الانتباه مع ما تقوله أو تطلبه المعلمة، أو لعدم قدرته على نسخ ما هو كتوب على السبورة. وهذا الطرد هو شكل آخر من سوء المعاملة والتنمر الذي يقع على هؤلاء التلاميذ. أما عن تنمر الوالدَينِ أو أحدهما؛ فيتمثل في شتم وضرب الطفل وإهانته أمام إخوته.

الأعراض الجسمانية التي قد يشعر بها من يعاني متلازمةَ إرلن قد تجعل الطفل دائم الشكوى من الصداع أو المغص أثناء اليوم الدراسي وكثير الذهاب إلى عيادة المدرسة، وقد يتم

تفسير ذلك على أنه وسيلة للتهرُّب من الحصص؛ وخاصة أن طبيبة المدرسة، وبعد ذلك طبيب الأطفال الذي يذهب إليه الأهل لفحص الطفل، لا يجدون سببًا فسيولوچيًا يفسر هذه الشكاوى المستمرة. فيكون هناك مبررات جديدة للأهل للوم الطفل لتمارضه وادِّعائه التعب حتى لا يقوم بمهامه الدراسية، سواء في المدرسة أم المنزل. عند شكوى الطفل من وجع عينيه وأنه لا يرى الكلام المكتوب على السبورة أو المطبوع في الكتاب، ويؤكد طبيب العيون أن الطفل نظره سليم تمامًا ولا يحتاج إلى أي نظارة لتصحيح الإبصار، يتعرض الطفل إلى مزيدٍ من الإمعان في التنمر من الأهل؛ لأنه على حد قولهم "بيشوف كويس" كما أكد طبيب العيون. وإذا كان الطفل من الأطفال الذين يجيدون التعبير عن أنفسهم ويبلغ الأهل أو المعلمين أنه يرى الحروف والكلمات تتحرك، تتم السخرية منه ولا يتم تصديقه. إلا أن كثيرًا من الأطفال الذين يعانون متلازمةَ إرلن وتشوُّه رؤية الحروف والكلمات، يعتقدون أن هذه الحركة والتشوُّهات طبيعية ولا يفصحون عنها لأنهم لم يروا الفرق. يحدث هذا فقط بعد الفحص والعلاج الذي يوفر لهم رؤية واضحة وثابتة ومريحة في الوقت نفسه. هذه هي أشكال التنمر من البالغين سواء معلمين أم أهل، قبل اكتشاف وعلاج متلازمة إرلن عند الطفل. التنمر يحدث أيضًا من الأطفال الآخرين سواء زملاؤه في الفصل أم إخوته في المنزل. فيتعرض للسخرية أو نعته بأنه أعمى أو غبي أو بليد.

ليت التنمر ينتهي بعد اكتشاف وعلاج متلازمة إرلن، ولكن يبدأ نوع آخر من التنمر نتيجة استخدام التلميذ لشفافيات ملونة للقراءة من الكتاب أو الورق المطبوع، أو كراسات ملونة للكتابة، أو لارتدائه نظارةً ملونة. وسائل العلاج الملونة تبرز اختلاف التلميذ عن أقرانه، وتكون مدعاةً جديدةً للسخرية والتنمر، وقد تكون سببًا في رفض الطفل لاستعمال هذه الوسائل، رغم احتياجه لها، حتى لا يتعرض للسخرية. كما قد يتعرض الطفل إلى الإكراه والغَصب من المعلمين والأهل لاستعمال الشفافيات والأوراق الملونة أو ارتداء النظارة الملونة؛ لما رأوه من تحسُّن في مستواه في القراءة والكتابة والتركيز، فيأتي ذلك بصورة عكسية ويزيد من عِنْد الطفل ورفضه لهذه الوسائل المساعدة.

ثانيـًا: المجال الرياضي

نظرًا لأن متلازمة إرلن تسبب مشكلة في إدراك المسافات والأبعاد والعمق، فهي بالتالي تؤثر على الحركة والتوازن وممارسة الرياضات المختلفة؛ وخاصةً التي يكون بها كرة متحركة، مثل كرة القدم واليد والسلَّة والتنس والإسكواش وتنس الطاولة. نتيجة تأثير متلازمة إرلن على التوافق بين الأطراف والعين، وتأثيرها على التوازن، فهي تؤثر أيضًا على تعلُّم ركوب الدراجة وعلى قفز الحبل وعلى استعمال أجهزة الجمباز وعلى السباحة. هذا بالإضافة إلى مشكلة الحساسية الضوئية التي يعاني منها طفل متلازمة إرلن الذي يمارس الرياضة تحت إضاءة ساطعة، سواء أكانت ضوء الشمس نهارًا أم ضوء الكشافات القوية ليلًا، فيشعر بالإجهاد والتعب ووجع العين والصداع والغثيان. نتيجة كل ذلك نجد الطفل يفشل في تعلم المهارات الأساسية للألعاب المختلفة، فيتعرض للوم والتعنيف من المدربين في النوادي، أو معلمي التربية الرياضية في المدرسة. ويتعرض أيضًا إلى اللوم من الأهل الذين يريدون أن يروا ابنهم أو بنتهم متفوقين رياضيًا. كما يعرضه أيضًا للسخرية والاستهزاء والتنمر من زملائه في اللعبة، والذين قد يرفضون انضمام الطفل إلى فريقهم في الألعاب الجماعية لأنه لا يجيد استقبال الكرة ولا يجيد إرسالها. وكَمْ سمعنا من الأطفال وأولياء أمورهم عن أولاد يلعبون وحدهم أثناء الفسحة المدرسية في فناء المدرسة لأن باقي الأولاد يفضلون لعب كرة القدم في الفسحة، بينما هو لا يُجيد هذه اللعبة ولا يرغب زملاؤه في اشتراكه معهم، فيفضل قضاء هذا الوقت بمفرده إما في الفناء في الظل أو في الفصل وحيدًا، وطبعًا لا يفضل الانضمام إلى زميلاته البنات حتى لا يتعرض إلى نوعٍ آخر من التنمر والسخرية للعبه وبقائه مع البنات فقط. ولا تنتهي مشاكل التنمر في المجال الرياضي بعد اكتشاف وعلاج متلازمة إرلن بارتداء النظارة الملونة، بل يتحول التنمر إلى استهزاء وسخرية من هذه النظارة التي قد يكون لونها ملحوظًا ولافتًا مثل النظارة الغامقة أو ذات اللون الأحمر أو الأخضر أو الأصفر، والتي يرتديها الطفل نهارًا وليلًا، فيسخر منه زملاؤه لعدم معرفتهم عن مشكلة متلازمة إرلن وسبب ارتدائه لهذ النظارة حتى يرى بصورة مريحة وواضحة. ومثال على هذا النوع من التنمر، إحدى الفتيات في سن العاشرة كانت تمارس لعبة الإسكواش ولديها أعراض شديدة لمتلازمة إرلن، وعندما بدأت ترتدي نظارتها الملونة أثناء التدريب وتَحَسن مستواها نتيجة رؤيتها للكرة وتتبُّعها وإرسالها واستقبالها بصورة أفضل، تعرضت إلى السخرية من زميلاتها في التدريب فتوقفت عن ارتداء النظارة رغم الاستفادة التي شعرت بها هي ومدربها وأهلها.

ثالثًا: الناحية الاجتماعية

أما فيما يتعلق بالناحية الاجتماعية سواء في المجتمع المدرسي أم العائلي أم بين الأصدقاء؛ فإن الطفل الذي يعاني متلازمةَ إرلن لا يمكنه التواصل بصورة سليمة بدرجة كافية مع الآخرين. هو لا يستطيع التعبير عن نفسه وعن مشاعره بطلاقة وبصورة واضحة. لا يفهم تعابير وجوه الآخرين ولا يتفاعل معها كما ينبغي. لا يثق في نفسه ولديه انخفاضٌ كبير في تقدير الذات. لذلك يكون في أحيان كثيرة منطويًا وغير اجتماعي. لا يستطيع بسهولة تكوين صداقات مع زملائه في الصف أو المدرسة أو النادي، أو مع أقرانه من الأقارب، أو حتى مع إخوته. ونتيجة عدم تفهُّم الأطفال الآخرين لمشاكل هذا الطفل، فهم إما يلتزمون بالسلبية تجاه تباعُده وعدم تواصُله معهم، أو يبادرون بالتنمر عليه والسخرية من عدم قدرته على التفاعل الفعال معهم؛ فيسهمون بذلك في زيادة انطوائه وتقوقعه حول نفسه ويدخل في دائرة مُفرَّغة من التأثيرات السلبية.

رابعًا: توصياتنا للتعامل مع مشكلة التنمر بالأطفال الذين يعانون متلازمةَ إرلن:

كيف يواجه الأهل مشكلة التنمر الخاصة بمتلازمة إرلن

ماذا يفعل الأهل عندما يعلمون بتعرض طفلهم إلى التنمر بسبب مشكلة متلازمة إرلن؟ بدايةً معرفة الأهل بمتلازمة إرلن هي الخطوة الأولى لمساعدة أبنائهم الذين يتعرضون إلى التنمر بصفة عامة. معرفة أعراض متلازمة إرلن ومدى احتمالية أن يعاني منها الطفل، ثم بعد ذلك التشخيص والعلاج وفهم المشكلة وتأثيرها على الطفل هي نقطة البداية. الخطوة التالية هي تقديم الدعم الأسري للطفل والتفهُّم لمشكلته وعمل التعديلات البيئية اللازمة له في المنزل، من إضاءة مناسبة وتوفير مكان مريح للاستذكار يتلاءَم مع احتياجاته. ويجب على الأم والأب توضيح المشكلة لإخوته ليفهموا التحدي الذي يواجه هذا الطفل والمعاناة التي يعانيها، ويصبحوا معاونين وداعمين له بدلًا من إحباطه والتندُّر عليه. ثم يأتي دور الأهل في تعريف إدارة مدرسة الطفل ومعلمي الصف بمشكلة ابنهم حتى يتفهَّموا تأثير ذلك على قدرته على التعلُّم، وعمل كل ما يحتاجه من تعديلات

مدرسية وصَفِّية من قبول استعمال الشفافيات الملونة والورق الملون، والسماح له بالجلوس في المكان الذي يحقق له أفضل رؤية للسبورة، والسماح له بارتداء قبعة لها حافة للتظليل على الصفحة، وغير ذلك من تعديلات أخرى. تَفهُّم الأهل لمشكلة طفلهم ودعمه النفسي، وشرح مشكلته للمحيطين به في الأسرة الصغيرة والكبيرة والمدرسة، هي خط الدفاع الأساس ضد التنمر لسببين: السبب الأول هو رفع ثقة الطفل بنفسه وتقديره لذاته وبالتالي عدم وقوعه فريسة للتنمر، وقدرته على حماية نفسه منه وعدم التأثر سلبيًا به وشرح مشكلته للآخرين. السبب الثاني هو أن كل إنسان هو عدو ما يجهل فعندما يفهم المحيطون المشكلة يحدث تحول في مواقفهم إلى التعاطف بدلًا من التنمر، وإلى الدعم بدلًا من التثبيط. تبسيط شرح متلازمة إرلن على أنها حساسية للضوء تماثل أي حساسية أخرى قد يعاني منها أي شخص مثل الحساسية للطعام أو الشراب أو الروائح أو الأصوات، تسهل وصول الرسالة للآخرين. وتبسيط الشفافيات والأوراق والنظارات الملونة على أنها وسائل مساعدة مثلها مثل النظارت الطبية والسماعات والكراسي المتحركة لمن يعاني من المشاكل المختلفة، تدعو أيضًا الآخرين إلى التفهُّم والتقبُّل والتعاون.

كيف تواجه المدرسة مشكلة التنمر الخاصة بمتلازمة إرلن

بعد قيام الأهل بدورهم وتوضيح المشكلة للمدرسة، يأتي دور المدرسة لحماية الطفل الذي يعاني متلازمةَ إرلن من التنمر، الذي من الممكن أن يكون قد تعرض له قبل معرفة معاناته من هذه المشكلة، والتنمر الذي سيتعرض له بعد معرفة تشخيص وعلاج المشكلة وبداية استعمال الشفافيات والأوراق والنظارة الملونة. نشر التوعية بمتلازمة إرلن في المجتمع المدرسي بين المعلمين والإخصائيين النفسيين والاجتماعيين هو الخطوة الأولى. ثم نشر التوعية بين أولياء الأمور هو الخطوة الثانية، ثم بين التلاميذ أنفسهم هو الخطوة المكملة التالية. عندما تتحول البيئة المدرسية كلها إلى بيئة واعية وصديقة لمتلازمة إرلن يصبح شيئًا عاديًا أن يرى التلاميذ زميلًا لهم يستعمل شفافية زرقاء أو صفراء عند القراءة من الكتاب في الفصل. ويصبح شيئًا مستساغًا عندما يجدون زميلهم على المقاعد المجاورة لهم يكتب في كراسة أوراقها خضراء أو بنفسجية

اللون. ويصبح شيئًا مثارًا للإعجاب لا للتندر عندما يَرَونَ زميلًا لهم يمشي في طرقات المدرسة يرتدي نظارة دكناء أو حمراء اللون، ويساعدونه في الحفاظ عليها من الكسر أو الخدش بدلًا من تعمُّد إيذائه وتعريضها للتلف. شرح الإخصائي النفسي أو معلم الفصل أو التلميذ نفسه الذي يعاني من متلازمة إرلن، ما هي وأعراضها وطرق علاجها على التلاميذ الآخرين، من خلال وسائل العَرض المختلفة سواء ملف باور بوينت أو ڤيديو أو رسوم أو قراءة قصص للأطفال كُتِبَت عن متلازمة إرلن، يحترم رغبة الأطفال الآخرين وفضولهم في معرفة لماذا يبدو زميلهم مختلفًا، ويحقق تعاطفهم وتعاونهم معه، ويقضي على مشكلة التنمر.

كيف يواجه المجتمع مشكلة التنمر الخاصة بمتلازمة إرلن

يأتي بعد دورِ الأهل والمدرسة دورُ المجتمع العام في مواجهة مشكلة التنمر التي يتعرض لها الأشخاص الذين يعانون متلازمةَ إرلن بصفة عامة، والصغار منهم بصفة خاصة. تغيير ثقافة المجتمع لِتَقَبُّل الآخر المختلف هي الركيزة الأساسية الأولى للقضاء على مشكلة التنمر. أما فيما يخص التنمر بمن يعاني متلازمةَ إرلن؛ فنشر التوعية المجتمعية بهذه المشكلة وأعراضها وعلاجها والفئات المختلفة التي قد تعاني منها فيجب أن يتم في المحافل كافةً. تعاون الجهات المختلفة الرسمية والأهلية لنشر التوعية شيءٌ ضروريٌّ عن طريق قنوات الإعلام المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية والإلكترونية. حماية هذا الطفل من التنمر، وفهم تحدياته ومشاكله، والحفاظ على حقه في استعمال الوسائل المساعدة التي يحتاجها؛ كل ذلك يؤهله إلى حياة أفضل يوجد بها سُبُل مفتوحة للتعلم والتواصل والنجاح.